علم النفس والإسلام

للدكتور محمد مظهر سعيد

الشخصية :

تتدخل فى تكوين سلوك الإنسان وخلقه ومن ثم شخصيته عوامل كثيرة ذكرنا منها نشأته وبيئته وأثرها فى غرائزه وانفعالاته وعواطفه وعقليته ومزاجه ولما كانت ظروف الناس مختلفة وأستعداداتهم الطبيعية متباينة — كما وأن اتفقت كيفا ونوعا — لزم أن يكون للناس شخصيات متعددة بتعدد هذه العوامل ، فقد يتميز أحد الناس بناحية خاصة تطبع أعماله وتصرفاته ومعظم أنواع سلوكه ومعاملاته مع الناس بطابع خاص يصبح ميزة له تعرف فيه أو صفة يوصف بها ، فنقول عنه أنه قويم الخلق أو مستأصل أو حاد الطبع أو عصبي أو كثير المرح والمزاح . وقد يتغلب عامل من العوامل أو نوع من أنواع الاستعدادات على الأنواع الأخرى ويطغى عليه بحيث إذا أردنا أن نصف صاحبه أو نصوره أو نتمثله تحدثنا عن هذه الناحية وحدها ولم يلفت نظرنا شيء فى النواحى الأخرى ، كأنها لا وجود لها ، فنقول عن فلان أنه واسع الاطلاع أو جبار العقلية أو مستبد برأيه أو سريع التقلب فى الرأى ، وما إلى ذلك من الصفات التى تدل على نوع خاص فى العقلية . أو يتكلم عن خلاف من الناحية الوجدانية وحدها فنقول أنه أنانى محب لذاته أو سريع الغضب أو شديد الإخلاص لأصدقائه ، أو متيم فى حبه أو متعصب لدينه ومبدئه وهذه كلها صور لأشخاص تغلب فيهم الناحية الوجدانية .

ولكن جميع هذه الصفات والصور الجزئية إن عبرت عن ناحية أو بعض نواح فى تكوين الإنسان فإنها تقصر عن أن تعطينا صورة صحيحة كاملة لنواحى الشخص الذى نتحدث عنه وأسباب سلوكه وأسلوبه كما يعرفها أصدقاؤه الذين خالطوه فى مختلف ظروفه ولمسوا فيه كل مذاهبه وعرفوا منه ومن أموره وتصرفاته ما لا يعرفه الأشخاص الذين خالطوه عرضاً وتأثروا بناحية خاصة فيه . فشخصية الإنسان ليست مجرد مظاهر عقليته أو مزاجه أو خلقه أو عواطفه أو

ناحية خاصة من نواحى تكوينه أو ميزة واحدة بارزة يتميز بها عن غيره من الناس ، وإنما هى وحدة حية مركبة من كل هذه النواحى ، ونتيجة لتداخلها وتفاعلها ، وبعبارة أخرى هى محصلة لعدة قوى، وبقدرما تكون عليه هذه القوى من قوة أو ضعف تكون الشخصية فى مجموعها قوية أو ضعيفة . وبالمثل إذا اتزنت هذه العوامل أنتجت شخصية متزنة معتدلة فى معظم نواحيها ، وإذا انحرفت عن طريقها الطبيعى أدت إلى شخصية منحرفة أو شاذة .

والعوامل التى تؤثر فى حياة الإنسان وتعمل على تكوين شخصية متعددة ، منها ما هو ثابت أصيل كالغرائز والذكاء ، ومنها ما هو مكتسب كالعواطف ولكننا نستطيع مع ذلك أن نردها إلى سبعة أصول رئيسية وهى العقلية والوجدان والمزاج والخلق والبدن والمهنة والبيئة .

أما من الناحية العقلية فان عقلية الإنسان تقوم على أساسين : الذكاء أو القدرة الطبيعية على التصرف فى المشاكل والمواقف الجديدة بأقصر الطرق وأقل الجهود . ثم العمليات العقلية التى تساعد الإنسان على كسب الخبرة والمعلومات والمهارة كالفهم والربط والتذكر والتفكير والتخيل ولا بد لإظهار الذكاء وتمرين العمليات العقلية والانتفاع بها فى التعلم المنظم . سواء أكان الغرض كسب معلومات أو مهارة فنية أو اتقان حرفة ، فى المدرسة والمصنع والحقل أو السوق . فالتعليم والتمرين وحدهما يعملان على كشف هذه الاستعدادات العقلية وتنميتها والسير بها فى طريق صالح منتج . على أن التعليم المدرسى وحده لا يكفى لتكوين شخصية قوية إلا إذا أكمل بالتثقيف . فهناك أنواع من المعلومات العامة الحيوية ليس للمدرسة نصيب فى كسبها . وليست علوم المدرسة غاية فى ذاتها بحيث إذا انتهى الإنسان فى تحصيلها كان عالماً مثقفاً . وإنما هى وسائل تنظيم ومفتاح لباب المعرفة ، حتى قيل أن الأستاذ ليبدأ يتعلم العلم الصحيح بعد أن ينتهى منه فى المدرسة ثم يتدرج من التعلم والتثقيف إلى الغرض الأسمى وهو دراسة طرق التفكير الصحيحة ومناهج البحث ومعالجة الأمور والنظر فيها نظراً سديداً وكسب العادات العقلية المنظمة وبذلك تصبح عقليته أداتا عامة مفيدة توجه نزعاته وميوله وعواطفه نحو الأغراض السامية التى يسعى لتحقيقها فى الحياة عن وعى ناضج وإدراك

صحيح . وهذا هو الطريق الذى سلكه السلف الصالح من الأئمة والمجتهدين والفلاسفة والعلماء وبعض البارزين من أئمة هذا العصر . فقد حرصوا على أن يتناولوا كل ما كان لديهم من علوم الدين والدنيا ، وأقبلوا عليها يدرسونها ويستوعبونها وكتبوا فيها الكتب وصنعوا الرسائل ، وكانت علوم الدنيا واللغة أكبر عون لهم على التفسير والتفقه فى الدين . والله تعالى يقول : يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات » .

والعلم أساس التقوى . ومعرفة النفس مفتاح معرفة الرب . والتقوى كما يقول الإمام المراغى « تشمل أقصاء الذنوب واتقاء الأسباب الدنيوية المانعة من الكمال والسعادة حسبما ترشد إليه السنن الكونية ، وذلك يتوقف على علم سنن الله فى الإنسان منفرداً ومجتمعاً ، وعلى معرفة ما ينبغى أن يفعل وينبغى أن يترك » .

وليس معنى الثقافة أن يتشدق الإنسان أمام الناس ببعض كلمات فصيحة أو غريبة أو بعض جمل أجنبية ليوهم الناس أنه عالم بها ، أو يردد بعض آى الذكر الحكيم وأحاديث الرسول أو بعض أقوال المتصوفة وأشعارهم ، ليوهم أنه متفقه فى الدين أو يجادل فى أمر عديم الجدوى أو يناقش مناقشة بيزنطية ، لمجرد تغليب رأيه . ويشير المراغى إلى هذا فى موضوع الجدل فى القبلة فيقول « مثل هذا ليس له شأن العقلاء ، لأنه جدل خارج عن دائرة البر والخير . إذ لا تفاضل فى الأمكنة » والله أعلم وفوق كل ذى علم عليم .

والمظهر الخارجى واللباس لهما أثر كبير فى إظهار الشخصية واخفاء عيوب الخلقة . وقد قيل النظافة من الإيمان . وفى الأحاديث الشريفة « اكرم شعرك ، إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده .

وقد قسم العلماء الشخصيات إلى شخصيتين كاملتين فى تكوينهما وبنائهما وأن اختلفتا فى الخصائص والمميزات ، هما الشخصية المنبسطة أو الممتدة ، والشخصية المنقبضة أو المنكمشة . وبينهما الشخصية الوسطى أو المعتدلة

فالشخصية الأولى المنبسطة فتميز صاحبها بسرعة التفكير وحضور البديهة والالمام السريع بالأشياء والمواقف ، وسرعة البت فيها ، وربما التصرف قبل التفكير وعدم الصبر على استقصاء الجزئيات والتفاصيل الدقيقة ومعرفة الناس وسرعة تكوين الأصدقاء والثقة بالناس فى المعاملات إلى أن

يظهر منهم مما يحمل على نزع هذه الثقة والميل للتغيير فى الحياة والتنقل ، وعدم البقاء على حال واحدة . وتنوع نواحى النشاط والأعمال ، والقدرة على التعبير والخطابة والتحدث للجماهير وترأس الجماعات والبدء بالمشروعات والمرح والتفاؤل فى الحياة ، وعدم التفكير فى الماضى ، وسرعة نسيان التجارب المؤلمة ، والصفح والاتفاق وبالجملة يريد صاحب الشخصية أن يمتد حتى ليغمر المجتمع كله بنشاطه وانتاجه وشخصيته ، ولذلك ترى له أثرا بارزا فى كل مشروع وعمل ومجتمع ، محبوبا عند الناس ، يقبلون عليه وعلى مجالسه وإن كان مرحه وتسامحه وعدم حرصه يطمع الناس فيه ، وقد يسيئون إليه ويتنكرون فضله ويتنكرون له ، وقد قال الرسول الكريم « إتق شر من أحسنت إليه » ، فأنه يظل يحتفظ بخصائص شخصيته ، كأن الخسائر المادية ومصائب الدنيا كلها ومتاعبها أقل من أن يفكر فيها . وأتفه من أن يعكر مزاجه ويرهق أعصابه بسببها ويغير من طباعه من أجلها .

ولعله ينطبق عليه قول الرسول « رحم الله عبداً سمحاً إذا باع ، وسمحاً إذا اشترى وسمحاً إذا اقتضى » وقوله أتى الله بعبد من عباده آتاه الله مالا ، فقال له : ماذا عملت فى الدنيا ؟ قال يا رب أتيتنى مالا ، فكنت أبايع الناس . وكان من خلقى الجواز ، فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر فقال الله تعالى : أنا أحق بذلك منك تجاوزوا عن عبدى .

وصاحب الشخصية المنقبضة ، على النقيض . شخص يحب العزلة والابتعاد عن الناس ليتقى شرهم ويأمن مكائدهم دائب التفكير والتحليل لنفسه وشعوره ودوافعه ، يحاسبها على كل كبيرة وصغيرة ، يجسم هفواته وهفوات الناس . حريص يعد العدة للمستقبل . ولا يأتمن أحداً ولا يثق فى أحد ، يدبر أموره فى الخفاء ، ويتذكر ماضيه ، ويتألم لسيئاته ، ويحزن على ما فاته ، ولا يؤمل الخير فى مستقبله ، لا يتصرف قبل أن يدرس كل تفاصيل ، وينفر من المجتمعات .

وقد يفيده حرصه وحذره . وقد ينفعه تكتمه ووقاره . ولكن كل هذا على حساب أعصابه ومزاجه .

فكل من هاتين الشخصيتين لها مزاياها ومثالبها . وخير للإنسان أن يكون صاحب شخصية ممتزجة منهما . فيمتد أحيانا فيما يفيد الامتداد فيه . وينكمش فيما يفيد الانكماش فيه . أو يمتد مع الناس وينكمش مع نفسه فيصبح متزنا معتدلا هادئاً ، لو كان هذا فى مقدور الإنسان .

محمد مظهر سعيد